قصـــة صوفية

للأستاذ محمد على الطعمى

أخذت الشيخ الناسك آهات الأذكار ، ومواجيد الأفكار فراح يهتف من أعماقه باسم ربه الأعلى ، ثم غمرته فيوضات ربانية فأخذ يتأمل فى ملكوت السموات وكيف ارتفعت وملأت بروجها الكون نوراً وإشعاعا ! كيف ؟ .

ظل الشيخ الناسك يترنم بالتسابيح ويتعمق فى التأملات تحت سماء مدينة « بخارى » حتى واتته الصلاة ، فنزل إلى غدير ممتد من حديقة ليتوضأ منه ، فوجد تفاحة عائمة على ظهر الماء ، فأكلها زعماً منه أنها حلال خالص ، ولكن الوسواس يلعب بخاطره ويساوره بأنها حرام أو مشكوك فى حلها على الأقل ، وتظل الشكوك تزداد لدى الناسك حتى قرع باب الحديقة ، فخرجت إليه جارية حسناء ، فقال لها أين صاحب هذه الحديقة ، فأجابته بأنها ملك لامرأة هى سيدتى . فأمرها الناسك بأن تستأذن عليها ، فذهبت وأخبرت سيدتها بأن رجلا بالباب تلوح عليه أمارات الزهد والتوكل يريد مقابلتها . فخرجت إليه السيدة واستقبلته استقبالا طيبا ، فقص عليها أمر التفاحة ، فقالت له أيها الناسك : إن هذه الحديقة أملك نصفها والسلطان فى مدينة « بلخ » يملك النصف الآخر ، اللهم إنى تنازلت لك عما أملك فى التفاحة ، فلا تؤاخذنى فيما لا أملك ، والسلطان أكرم من هذا فاذهب إليه .

اعتزم الناسك الرحيل إلى مدينة « بلخ » فقطع المسافة مشياً على رجليه فى أيام حتى وصلها .

وفى ضحوة يوم رأى الناسك السلطان خارجا فى موكب عارم يحفه الحرس وتحيط به الأعلام ، وفى معيته الوجهاء والكبراء ، فاعترض عليه الطريق وخاطبه فى شأن التفاحة ، فقال له السلطان : أرجىء هذا الأمر أيها الناسك ، وفى غد عد إلينا ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا . . .

ذهب السلطان إلى حال سبيله ، وقضى سحابة يومه فى تدبير مملكته ، ثم رجع إلى قصره المنيف حيث آوى إلى مخدعه ، فدخلت عليه ابنته الوحيدة فرأت على شفتيه ابتسامة ، وفى عينيه رضى ، فقال لها : أى بنيتى . . إنك تعلمين أنى أحبك كثيراً ،

وأقدرك كثيراً ، وكل أمنيتى فى هذه الحياة أن يكون لك زوج ، وقد جاءتنا الملوك وأبناء الملوك طمعاً فى زواجك ، فأبيت أنت الاباء كله إلا أن تتزوجى رجلا زاهداً ومن النساك ، واليوم يا بنيتى الصالحة ، قدم إلينا رجل صبوح الوجه بادى الصلاح . ليستسمحنى فى نصف تفاحة ، أكلها من حديقتنا فى مدينة « بخارى » .

أى إيمان راسخ مثل هذا الإيمان ؟ وأى ورع مثل هذا الورع ؟ يا لله من أجل نصف تفاحة أكلها عفواً وبدون قصد يقطع هذا الناسك تلك الأميال . . . حقا يا بنيتى إنه ورع ، ومن رأيى أن تقبليه زوجا . . .

فرحت البنت بهذه البشرى التى تتوق إليها من زمن ، وبان عليها الرضا والقبول .

وفى الصباح أقدم الشيخ أدهم إلى دار الملك فدخلها آمنا ووقف بين يدى السلطان الذى هش له وبش ، ثم عرض عليه فى مساورة أن يتزوج من ابنته ، وفى نظير ذلك يعفو له عن نصف التفاحة ، فتمنع أدهم كثيراً ، وعارض السلطان بشدة ، ولكن السلطان أصر على رأيه وتلطف معه فى القول ، فاستجاب أدهم ورضى أن يكون صهراً للسلطان .

سرى هذا النبأ فى أنحاء المملكة فاستولى العجب على كثير من عظمائها وذوى الثراء فيها ، تعجبوا من رجل صوفى زاهد فقير تواتيه الحظوظ بين عشية وضحاها ، وهو يرفض الحظوظ ويحاول جاهداً أن يتخلص منها . . كل هذا والسلطان يترضاه تارة ويرجوه أخرى حتى يقبل متأففا . . من هذا ؟ إنه أدهم الأواب الذى يبيت ليله ذاكرا ، ويصبح نهاره صائما حبا فى الله وطمعا فى رضاه . . إنه أدهم ذو الكرامات الساطعة والدعوات المستجابة والآهات الضارعة إلى الله ، فكيف لا يرضى به السلطان صهرا ؟ . .

مضى ليل وأقبل نهار ، وانقضى عام ، وإذا ببنت السلطان تنجب غلاما أسماه أدهم إبراهيم ، ويشاء ربك أن يموت السلطان غير تارك ذرية من خلفه فيتربع ابراهيم ابن أدهم على البلاد ويصبح ملكا بيده مقاليد الأمور ، ولكن إبراهيم يزهد فى الملك ، ويخلع التاج راضيا وينضم إلى ساحة الصوفية ، وله فى ذلك قصة مشهورة ربما عدنا إليها فى يوم من الأيام إن شاء الله ؟ .